

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

Constructing Memory: Pioneer-Settler Literature in Algeria and the Representation of Colonial Structures

المؤلف الأول* سليم حيولة

haioula@yahoo.fr . جامعة المدية يحيى فارس كلية الآداب واللغات قسم اللغة

والادب العربي الجزائر

ملخص	معلومات المقال
تُحاول هذه المداخلة توضيح مسألة الذاكرة حول الاستعمار، بالاستعانة بمجموعة من المؤلفات النظرية في هذا المجال، التي تناولت المسألة من موقع أوروبي، يُحاول تأسيس أرضية مفهومية للدور الكبير الذي تلعبه الذاكرة في مستقبل المجتمعات والأمم، وخصوصا إذا كانت هذه الذاكرة تجمع شعوبا مختلفة، في محطات تاريخية مخصصة، وقد كان الاستعمار الأوروبي لإفريقيا موضوعا للعديد من التأمّلات والاسترجاعات، لأنّه كان مؤثرا بشكل كبير في حاضر الأمم، سواء التي قامت بفعل الاستعمار أو تلك التي عانت منه، وتزداد أهمية الذاكرة اليوم أمام فرص التنمية والتطوّر والإشكالات الحضارية والمجتمعية، باعتبارها مسألة غير مفصول فيها، ما تزال تُؤثّر في الذات وتُعكّر صفو العلاقات بين الدّول والمجتمعات، وتُساهم في الحدّ من إبداعية الإنسان، ما سنعكس على العالم بأسره، وقد كانت التّحديدات التي وضعها الفيلسوف الفرنسي "بول ريكور" مدخلا لفهم مسألة الذاكرة وعلاقتها بالهوية، داخل الأمة الواحدة، وبمستقبل الأمم التي جمعهم تاريخ مشترك، وكانت الجزائر كغيرها من الدّول الإفريقية قد عانت من استعمار فرنسي بغرض، وما بقي عالقا في أذهان أبنائه إلى اليوم، هو تلك الجرائم التي ارتكبتها في حقّ الإنسان والأرض والثّقافة المحلية والتّاريخ والهوية، بما لم يحصل تقريبا في أية منطقة أخرى، وقد كان موضوع الذاكرة تيمة أساسية في العديد من المؤلفات الأدبية، لكنّ الإشكال كان في توظيف الذاكرة من منظور ذاتي خالص، وهو ما حصل مع الروائي المعتمّر "ألبير كامو"، الذي كانت روايته "الإنسان الأوّل"، الصادرة، بعد وفاته، في سنة 1994، عبارة عن رواية سير-ذاتية، يُحاول من خلالها تأسيس بيانٍ للذاكرة الاستعمارية في الجزائر، والأمر نفسه ما يحدث اليوم في فلسطين، التي ما تزال تُعاني من استعمار استيطاني صهيونيّ (عالمي)، يستهدف نفي تاريخ البلاد والقضاء على الإنسان، من خلال الجرائم الفظيعة، التي ما تزال تُرتكب في حقّ الفلسطينيين؛ أطفال وشيوخ وعجائز وشباب، وتترافق هذه الجرائم مع بروز ذاكرة الفلسطينيين حول "النّكبة"، التي حدثت في سنة 1948، كرمز لذاكرة جماعية، ليست فلسطينية فحسب، بل عربية، وخاصة كذلك بكلّ إنسان محبّ للحرية والسلام والقيم الإنسانية .	تاريخ الاستلام: 2026/06/04 تاريخ القبول: 2026/06/06 الكلمات المفتاحية (لا تتجاوز 05 كلمات دالة) بول ريكور-الذاكرة- الاستعمار- كامو-الإنسان الأوّل

¹ سليم حيولة

Key words (05)

Ricœur – Memory –
Colonialism – Camus –
The First Man

Abstract:

This paper seeks to clarify the question of colonial memory by drawing upon a range of theoretical works that address the issue from a European standpoint—one that attempts to establish a conceptual framework for understanding the significant role memory plays in shaping the future of societies and nations, particularly when such memory binds together different peoples at specific historical junctures. European colonialism in Africa has been the subject of extensive reflection and retrospection due to its profound impact on the present realities of nations, both the colonizing powers and those that suffered colonization.

Today, the importance of memory is heightened in light of the opportunities for development and progress, as well as the civilizational and societal challenges that remain unresolved. Memory continues to create tension in relations between states and societies and contributes to limiting human creativity, with repercussions that affect the entire world.

The conceptual formulations presented by the French philosopher Paul Ricœur provide a key entry point for understanding memory and its relationship to identity within a single nation, as well as among nations connected by a shared historical experience. Algeria, like other African countries, endured a harsh and oppressive French colonial rule, the remnants of which include the crimes committed against its people, land, local culture, history, and identity—crimes unparalleled in many other regions.

*Memory has thus become a central theme in numerous literary works; however, the challenge lies in its use through a purely subjective lens. This is evident in the writings of the pied-noir novelist Albert Camus, whose unfinished autobiographical novel *The First Man* attempts to construct a manifesto of colonial memory in Algeria. A similar situation unfolds today in Palestine, which continues to suffer under a globalized Zionist settler colonialism aiming to erase the country's history and eliminate its people through ongoing atrocities targeting Palestinians—children, elders, women, and youth alike. These crimes coincide with the resurgence of Palestinian memory surrounding the 1948 Nakba as a symbol of a collective memory that is not only Palestinian but also Arab and universal—shared by all those who value freedom and peace.*

تمهيد

عادت مسألة الذاكرة اليوم، لتشغل اهتمامات المفكرين والأدباء والمؤرخين، ما سمح، في السنوات الماضية، بظهور مجموعة من المؤلفات الفلسفية والفكرية الأوروبية، موضوعها الأساس الذاكرة التاريخية، لعل أبرزها ما كتبه الفلاسفة والنقاد الفرنسيون،

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

من أمثال "بول ريكور" و"تريفيطان تودوروف" و"جاك ديريدا"، وغيرها من الكتابات الأخرى، التي لا تني تُعيد مسألة الذاكرة للظهور، وتُكوّن النقاشات الأكاديمية والصحفية، وهي كتابات تُعبّر عن ذاكرة تاريخية، تتناول علاقة الإنسان بالإنسان، في إطار أحداث ماضية، ما تزال مؤثرة، بشكل كبير، في الحاضر، وهذا الاهتمام بالذاكرة، يُعدّ تحوّلًا من مسار مسألة أخرى هي الاعترافات ورجاء الصفح، التي عُرفت قديما لدى عدد من الكتاب ورجال الدين، من أمثال "القديس أوغسطين"، أو في عصرنا الحالي، كما عبّر عنها الفيلسوف الفرنسي "جان بول سارتر"، والقائمة على الاعتراف وطلب الصفح، لبناء مستقبل جديد في تلك العلاقة، وكانت العلاقة فيها بين الإنسان والله، بينما تُحاول كتابات القرن الحالي تقديم رؤية جديدة للتاريخ، تحت ضغط ذاكرة الحاضر، وتتناول علاقة الإنسان بالإنسان وبالعالم .

تُعدّ هذه الكتابات الجديدة تعبيرا عن سمة طبعت الكتابات الفلسفية والفكرية، في نهاية القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، جعلتها تُمثّل حساسية فكرية جديدة، لها أسسها وضوابطها، في العصر الرّقمي، الذي نعيش في إطاره سطوة الرقمنة وهيمنة التكنولوجيات المتعدّدة، سمحت للبشر بإعادة تمثّل تاريخ العلاقات الإنسانية، بل وأصبحت تُمثّل أيضا مسارا بحثيا جديدا، بدأ يُحقّق استقلاله المعرفي والمنهجي في إطاره العام، ويبدو أنّ بدايات الألفية الثالثة هذه، قد عرفت تحوّلًا نحو دراسة موضوع الذاكرة، والانتقال، منذ سبعينيات القرن العشرين حتّى تسعينياته، من دراسات الخطاب الكولونيالي والنّظرية ما بعد الكولونيالية، التي اشتهر خلالها كلّ من "إدوارد سعيد" و"بيل آشكروفت" و"هومي بابا" و"غاياتري سبيفاك" و"آنيا لومبا" و"حميد دباشي" و"والتر ميغوللو"، إلى موضوع التّاريخ والذاكرة الفردية والجماعية وإعادة التّاريخ، مع ما ميّزها من تناول مسألة تلاعبات الذاكرة من قبل السلطة المؤسّساتية، وغيرها من المسائل المتعلّقة بها، لكنّها بقيت تسير، من جهة ثانية، مع تيّار الديكولونيالية، الذي عرّف بداياته الفعلية في القارة الإفريقية، ابتداء من خمسينيات القرن العشرين، وما يزال متواصلا إلى اليوم، على يد مجموعة من السياسيين والمفكرين والأدباء، كـ"أميلكار كابرا" و"تشنوا أتشيبي"، وبرز في الجزائر أيضا "مالك بن نبي" و"مصطفى الأشرف" و"فرانتز فانون"، و"محمد الشريف ساحلي" مع كتابه "تصفية التّاريخ من الاستعمار"، فمن أجل بناء ذاكرة صحيحة ومنتجة، لا بدّ من تخليص التّاريخ من الإيديولوجيا وقوى الهيمنة .

وعلى الرغم من ذهاب المفكّر والمقارن الجزائري "وحيد بن بوعزيز" إلى أنّ مسألة الذاكرة تدخل ضمن الدّراسات ما بعد الكولونيالية، لتناولها العلاقة التّاريخية بين المستعمر والمستعمر، بالموازاة مع ظهور حركات التّحرير، نتيجة انحراف عقل الأنوار، الذي أسّس لفكرٍ أروبي متمركز، فإنّ مسألة الذاكرة تُعدّ، في رأيها، من أبرز تحوّلات الدّراسات المقارنة المعاصرة، في بدايات القرن الواحد والعشرين، وهي السنوات التي تُعدّ حاملة لحساسية نقدية ومقارنة جديدة، تمّ من خلالها الانتقال من دراسات، شملت

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

فترة زمنية طويلة نسبيا، دون أن تُنتج حلولاً اقتصادية وسياسية وثقافية فعلية، للبلدان الخارجة من الاستعمار، لأنّها كانت على درجة كبيرة من السموّ الأكاديمي، وبقيت تُخاطب النخب، مع عدم قدرتها على إقامة علاقة حوار فعليّ بالمجتمعات في العالم، ولم تستطع أيضا، على الرغم من عقلانيّتها، أن تنزل للمجتمعات وتُنتج خطابا واقعيّا، يُحدث التأثير المرجوّ، الذي أحدثته مثلا الثورات المسلّحة، كنزيرة التحرير الجزائرية والفيثنامية والفلسطينية، التي ما تزال مقاومتها حازمة ضدّ الصهيونية، دون إهمال الدور الكبير الذي تُمارسه القوى الكبرى في الحدّ من أثر تلك الثورات ووعي الشعوب ومنع بروز عالم التّعاشي والحوار، وفي الممانعة وجمع كباح عمليات تصفية الفكر الاستعماري وبناء عالم خالٍ من الكراهية، كما أنّ بروز قضيّة الذاكرة كسمة من سمات هذا العصر، يُعدّ تحوّلًا عن مختلف المقاربات الفكرية السابقة، بفعل النّقد الذي ما يزال مستمرا لتقويم المنظومة المعرفة الأوروبية وإحداث القطيعة اللازمة، من أجل تطوّر المعرفة، كما حدّد ذلك الفيلسوف الفرنسي "غاستون باشلار".

فضلا عن ذلك، فإنّ موضوع الذاكرة سيكون طاغيا على مختلف المجالات، في مرحلة العصر الرقمي، الذي نعيشه اليوم، إذ وصلت البشرية مرحلة تاريخية تتميّز بالعودة إلى الذاكرة الجمعية والفردية، إذ بوسع الإنسان التأمّل واسترجاع الماضي بأمجاده وانتصاراته وخيباته كذلك، ومحاولة الفكّك منه والنّظر إليه نظرة أكثر موضوعية، قد تقوده في الأخير إلى تحقيق السلام الروحي والطمأنينة، ولئن كانت قضايا التّاريخ والذاكرة والصفح والغفران، قد عادت اليوم من خلال انعكاسات ما يُسمّيه فلاسفة أوروبا بقرن الشرّ؛ القرن العشرين، وما تخلّله من أزمات اقتصادية وحربيّين أروبيّين وحروب الخليج وغيرها، لكنّه في صلب التأمّل الفلسفي المعاصر يبقى الحيّز الجغرافي هو أوروبا والغرب عموما، دون تجاوز ذلك إلى معالجة ذاكرة المظلومين والمقهورين، الذين أرُكبت في حقّهم أفظع جرائم التّمييز العنصري والقتل والتّشريد، إذ كثيرا ما يعتور هذه الذاكرة الأوروبية نسيانٌ فاضح، هو الجرائم التي اقترفها الاستعمار منذ نهاية القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر، حتّى منتصف القرن العشرين، وقد ازداد ثقل الذاكرة الأوروبية والغربية عموما، بعد تغاضيها عن الجرائم التي يقترفها الصهاينة اليوم في غزّة، بعد أحداث السابع من أكتوبر 2023، وبروز عمقٍ إنساني، تميّزت به غالبية الشعوب، بعد إدراكها لخطورة الكيان الصهيوني، ليس على العرب والمسلمين فحسب، بل على البشرية كلّها.

لقد أصبح الباب، بعد كلّ هذا، مفتوحا أمام المجتمعات الأوروبية، ليشمل قضية الذاكرة الحقيقية للبشرية، دون إقصاء لأيّة منطقة جغرافية أو فترة زمنية، وعلى الخصوص العلاقات بين أوروبا وجنوبها أثناء الاستعمار، وإن كان "ريكور" قد ذهب إلى تأكيد سير الذاكرة مع النّسيان، إلّا أنّ هذه المسألة تجعلنا ندرك مختلف التّلاعبات الممارسة في حقّ الذاكرة الإنسانية، وتخليصها من كلّ القوى المسيطرة عليها، لذلك فإنّ تناول مسألة الذاكرة اليوم هو في حقيقته محاولة لتخليصها من براثن السلطة ومنع

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

التّلاعبات التي تعرّضت وتعرّض لها من قبل قوى لا تسمح برؤية صادقة للماضي، دون شوائب الإيديولوجيا والدّعاية، وتبقى الأسئلة التي تفرض نفسها بعد هذا السيل من الكتابات حول الذاكرة في الفلسفة الأروبية هي: لماذا تتجنّب ذاكرة هؤلاء المفكرين الاستعمار وأساسه الفكري المتمثّل في الفكر الكولونيالي؟ وما مصير ذاكرة الأفارقة والآسيويين فيما أرتكّب، في حقّهم، من جرائم أثناء الحملات الاستعمارية وبعدها؟ لماذا تتوقّف ذاكرة أروبا أمام شرور القرن العشرين (الحربين العالميتين والأزمات الاقتصادية وغيرها)، دون التفات لما اقترفه الاستعمار وتقترفه الصهيونية اليوم؟ وكيف يُمكن للبشرية إعادة بناء ذاكرة تاريخية، مؤسسة على الحقائق التاريخية وقائمة على العدالة والقيم الإنسانية؟

أولاً: بول ريكور، فينومينولوجيا الذاكرة

ظهر كتاب الفيلسوف الفرنسي البارز "بول ريكور" (1913-2005) *La mémoire, l'histoire, l'oubli* في سنة 2000، مبشراً بعصرٍ فكريّ جديد، يختصّ بتناول مسألة الذاكرة، ولهذا الكتاب علاقة شخصية بكتابه، إذ إنّه، كفرنسيّ، شارك في الحرب العالمية الثانية، ووقع أسيراً في يد الجيش الألماني، وأمضى سنوات طويلة في محتشدات النّازية، وهي الفترة التي مكّنته من قراءة فلسفة الألماني "إدموند هوسيرل" (1859-1938) الفينومينولوجية، ومهما يكن، فإنّنا أمام ذاكرة مرتبطة بالذّات، بالمعنى الفينومينولوجي، ومتعلّقة بها، ويُعدّ مترجم الكتاب حول الذاكرة، إلى اللّغة العربية، الفلسطيني "جورج زيناتي" كتاب "بول ريكور" آخر كتاب فلسفيّ هام، صدر في القرن العشرين، يهدف، كما يذهب، إلى التّوصل إلى ذاكرة عادلة، ومتوازنة، تستطيع أن تنسى. أي أنّ النّسيان بالنّسبة لريكور، حسب مترجمه، هو الوصول إلى الذاكرة، الذي تتحقّق به السعادة، وليس إلى العدالة والحساب، كما يذهب منتقدو "ريكور"، ويضيف «هو خطاب عن شقاء الإنسان في تاريخه العنيف وحلمه بالوصول إلى ذاكرة عادلة، تكون بمثابة تنويعٍ لنهاية سعيدة»². ف"ريكور" يسعى، باعتباره مفكراً يُمثّل الضمير الإنساني، إلى التعبير عمّا عاشته البشرية خلال تاريخ وجودها، الذي ميّزه العنف وتخلّلتها الآلام، فهو يرى أنّه قد حان الوقت لاسترجاع هذا الماضي، وتحقيق الطمأنينة من خلال الاعتراف، الذي يُمثّل، حسب ما يُسمّيه، ذاكرة عادلة، تقود الإنسان، في الأخير، إلى السعادة، وهذا يُمثّل بالنّسبة لنا أنّ هذا الإنسان الشقيّ، كان شقاؤه فيما بينه وبين الإنسان، أي تلك الإساءات الكبرى التي وقعت في التّاريخ؛ حروب ومشاكل وأزمات واعتداءات وتورّطات وإيعازات، وكذلك من نهب وسيطرة وقوّة، فعلى الرغم من المحاولات التي جرت تاريخياً في أروبا، مثل تأسيس العقلانية كفكر إنسانيّ، يسعى لعقلنة العالم، إلّا أنّها محاولة أدّت إلى المزيد من الاغتراب عن هذا العالم، فما أصبح الإنسان يتمتّع الوصول إليه اليوم، هو الطمأنينة، أمام ذاكرة ما تزال تؤرّقه وتؤلّم

² بول ريكور، الذاكرة، التّاريخ، النّسيان، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ترجمة جورج زيناتي، الطبعة الأولى، 2009، تقديم المترجم، ص 5

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

ضميره، يسعى للتحرّر منها، وهو في حاجة أن يُسمّي التاريخ بأسمائه، دون لفّ ولا دوران، ولكن السؤال الواجب طرحه في هذا المقام هو: عن أية ذاكرة يتحدّث "ريكور"؟ وهل أدرج في حسابه ذاكرة الجزائريين والفلسطينيين؟ هل ترى الفلسفة الفرنسية أنّ عقل الأنوار هو ما أدّى إلى الجرائم الفظيعة، التي ارتكبتها الاستعمار الفرنسي في حقّ الشعب الجزائري؟ والجرائم المروّعة التي تُرتكب اليوم في غزّة وفي فلسطين كلّها؟ وهل يُعدّ كتاب "ريكور" بسطا نظريا للذاكرة والنسيان والصفح فحسب، دون أن يُجاوز ذلك إلى "محاسبة ذاكراتية" لأفعال فرنسا والكيان الصهيوني؟ وهل يجوز لكلّ المضطّهدين، الذين ما يزالون تحت سلطة جلاّديهم أن يتذكّروا كي ينسوا، من أجل بناء مستقبل جديد؟

يؤكد ريكور في "التنبية" المتصدّر لمؤلّفه، إلى أنّ كتابه يدور حول الذاكرة، استند في تناول قضاياها، التي قسّمها ثلاثة أجزاء، حسب عنوان الكتاب، إلى ثلاث منهجيات ورؤى فكرية، خصّص الأول منه للذاكرة La mémoire وللظواهر الذاكرة، متّبعاً فيه رؤيا الفينومينولوجية، كما عرفها لدى "هوسيرل"، والثاني خصّصه للتاريخ Histoire، كعلم، مستندا إلى إبستمولوجيا العلوم التاريخية، أمّا الجزء الثالث منها فقد خصّصه للتأمل حول النسيان L'oubli وحاول فيه الرجوع إلى التأويلية أي الهرمنوطيقا³، فهو ينتقل من الذاكرة ليربط بينها وبين التاريخ، ثمّ ينتهي بالنسيان، الذي يراه السبيل الأوحد للطمأنينة والسلام الروحي، والملاحظ أنّ تعدّد الرؤى ومناهج المقاربة "الريكورية"، قد أغنى النتائج التي توصّل إليها في الكتاب، وجعل أفكاره مضبوطة، انطلاقاً من التأمل والوصف، وصولاً إلى اتباع مناهج المعرفة المعاصرة، التي تسهّل اندلال المعنى ووضوحه، وكشف مختلف الإشكالات المتعلقة بالقضايا المدروسة، فيما يتعلّق بالهيمنة والسلطة، المتحكّمة فيها، وهي عادة الفلاسفة وخطّتهم، من أجل الوصول إلى جوهر الأشياء ومضامينها، من خلال تخليصها من الشوائب المتعلقة بها، بعيداً عن كلّ الإيديولوجيات ومراكز القوّة، لذلك، وفي مقابل هذه المسألة، نحن أمام إشكالتين، تتعلّق الأولى بتخليص التاريخ من التزييف واستخلاص الحقائق الفعلية، والثانية هي تخليصه من هيمنة الإيديولوجيات المختلفة، ثمّ الوصول إلى التخلّص من الماضي (النسيان)، وحول هذا، يذهب "وحيد بن بوعزيز" إلى أنّ «الغرض من الكتابة عن الذاكرة لم يكن مرتبطاً فقط باسترجاع الماضي لأغراض تعليمية أو تربوية أو اعتبارية؛ بل كان مرتبطاً بغرض تفتيق وتحرير هذه الذاكرة من الكتابات الشمولية التي تحكّمت فيها طويلاً وهيمنت على سرديّتها»⁴. فقد خضع التاريخ دوماً للإيديولوجيا، وإذا كان، كما هو شائع، أنّ التاريخ يكتبه الأقوياء، أو المنتصرون، فمعنى هذا أنّ حقيقته ضائعة، يبقى الحلّ الأقدر في كشف جزء من الحقيقة بيد

³ - بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تنبيه، ص 27-28

⁴ - وحيد بن بوعزيز، التاريخ والذاكرة والصفح، في كتاب من تأليف جماعي: خارج الأسوار، أوراق في الدّراسات الثّقافية، تحرير مبارك الجابري، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، الطبعة الأولى، 2022، ص 93

المتأمل المستند إلى المناهج المضبوطة، التي تُوصّله إلى المبدأ، الذي سيُمثّل الانطلاقة الفعلية للوصول إلى الحقيقة، وهذا ما يُسمّى بمراجعة التاريخ، فقبل بناء الذاكرة لأبد من هذه المراجعة، وتزداد الصعوبة، حين يكون التاريخ والذاكرة أسيرين للإيديولوجيا، التي تتمظهر في إطار خطابٍ متنوّع، يدّعي امتلاك الحقيقة، ولم يكن التاريخ يوما متحرّرا من أشكال السلطة، التي منحت المشروعات لوجهة نظر واحدة ضيقة، لذلك فإنّ مهمّة النقد والفكر اليوم، تتمثّل في تخلص الذاكرة من الشوائب التي لحقتها (التزييف والهيمنة) عبر التاريخ، من أجل تأسيس الحاضر والمستقبل معا.

إذن، فالمسألة، في الكثير من الأحيان، ليست متعلّقة بالتاريخ في حدّ ذاته، بل بالذاكرة عن التاريخ، وهو ما يقصده "ريكور"، الذي يرى أنّه «ليس أماننا أفضل من الذاكرة كي نوّكد أنّ شيئا وقع قبل أن نُشكّل عنه ذكرى نحفظها. ولنقل منذ الآن إنّ كتابة التاريخ نفسها لن تنجح في زحزحة الاقتناع، الذي يتعرّض للسخرية باستمرار، ولكنّه، باستمرار يُؤكّد من جديد، وهو أنّ المرجع الأخير للذاكرة يبقى الماضي مهما كان معنى ماضوية الماضي»⁵. فالذاكرة ليست التاريخ، بل هي شيء مؤثّر في سيرورة التاريخ وفي حركته، يتواصل ليُكوّن شيئا، يبقى مؤثرا في الإنسان وفي علاقته بنفسه أو بالآخر، وهو المسؤول الأول عن تأسيس الحاضر، معرفيا وتاريخيا واجتماعيا، بناء على ما علق بالذات، بالمعنى الفينومينولوجي، من ذاكرة، فليست الذاكرة هي التاريخ، بل هي ما نُشكّله عن التاريخ، حتّى وإن كان ذلك التاريخ مزيفا، ونجد الأمر ماثلا في ثلاثة أمثلة، يتعلّق الأول بغزو أمريكا بالنسبة للأوروبيين والثاني بالاستعمار الأوروبي لإفريقيا وبعض مناطق آسيا، والثالث بالقضية الفلسطينية، إذ نجد أنّ ما علق بذاكرة الشعوب الأوروبية غير متطابق مع ذاكرة الشعوب التي كانت ضحية عمليات الغزو والاستعمار، وإنّ ما يُنغص البشرية اليوم، هو الذاكرة عن هذه الأحداث الثلاثة، بحيث لم تستطع أوروبا أن تُقيم سلاما حقيقيا مع ذاكرتها، لأنّها تظلّ تنفي هذا التاريخ، بالرجوع إلى ذاكرة مغشوشة عنه، وهي، في الحقيقة، ضحية إيديولوجياتها المسيطرة، والقوى المؤسّساتية الضاغطة، التي تفرض رؤية خاصة للعلاقات بينها وبين الآخر، وتُحدّد الخطاب ومحموله الفكريّ، وفي إطار هذا المعنى يرى "بن بوعزيز" أنّه قد «حدّر كثير من المحلّلين من انتهاكات الذاكرة، بحيث تتلاعب جماعة ما بأحداث ماضية وتُحاول الاستيلاء عليها بالطريقة نفسها، التي تتعامل بها التوتاليتارية في الهيمنة مع الماضي، بحيث يتمّ تكريس كلّ القنوات التواصلية لكي تُفتّت ذاكرة مشتركة، لصالح جماعة واحدة تُريد السطو عليها»⁶. فأروبا اليوم، والغرب بصفة عامّة، لا يُراد لها أن تعترف بماضيها المشترك مع شعوبٍ أخرى، خصوصا الشعوب الواقعة جنوبها، وفي أقاصي

⁵ - بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص 35

⁶ - وحيد بن بوعزيز، التاريخ والذاكرة والصفح، في كتاب من تأليف جماعي؛ خارج الأسوار، أوراق في الدّراسات الثّقافية، تحرير مبارك الجابري، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، الطبعة الأولى، 2022، ص 97

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونالية

آسيا وأمريكا اللاتينية، والتي تعرّضت لاستعمار استيطانيّ، كانت نتيجه وخيمة على الإنسان وعلى الهوية الثقافيّة والاقتصاد واللغة والتاريخ، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يُمكن بناء عالم أفضل، قائم على الاعتراف بأحداث هذا الماضي المشترك وبناء قواعد مستقبل أفضل؟ لا بدّ أنّ هذا التّشويه المتعمّد لم يسمح بإقامة هذا العالم، الذي تطمح البشرية إلى تحقيقه؛ عالم الطمأنينة والسلام، والتّعايش الفعلي بين الأجناس. الأمر الذي يجعلنا نتّفق مع المفكّر والمقارن الجزائري، في أنّ ما تفعله القوى الكبرى هو نوعٌ من التّلاعب بالذاكرة من أجل تحقيق غايات خاصّة، بحيث لا تختلف عن الأنظمة الشمولية التي ميّزت فترة من تاريخ العالم، واستعملت الإيديولوجيا في تقديم تاريخها وروايتها.

فضلا عن ذلك، فإنّ ما يمنع بناء ذاكرة عادلة، كما يُسمّى "ريكور"، هو انخراط الاستعمار في عملية التّعتيم والتّزييف، فالأنظمة الاستعمارية تركت الشعوب المتحرّرة غير قادرة على بناء دولٍ حرة ثقافيا واقتصاديا، ما ساهم في تعزّز بناء ذاكرة حقيقية عن التاريخ المشترك، بينها وبين تلك الشعوب، فالتاريخ أصبح رهينة بيد الاستعمار الجديد لمنع أيّ تحرّز فعلي للشعوب المقهورة، وتظلّ جهود المؤرّخ "بنيامين سطورا" Benjamin Stora الأستاذ بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية بفرنسا، تصبّ في بناء هذه الذاكرة العادلة بين فرنسا والجزائر، إذ نجده يُلحّ على ضرورة اعتذار فرنسا اليوم عن ماضيها الاستعماري، بكلّ ما حمّله من آلام للجزائريّين، ملّمحا إلى تلاعبات السياسة الفرنسيّين مع الذاكرة، في صالح المزيد من التّعتيم، وقد نشر كتابا عديدة عبّر فيها عن الإشكالية التي تعيشها قضية الذاكرة المشتركة بين فرنسا والجزائر، وقد وسم هذه التّجاذبات بـ "حرب الذاكرة"، خصوصا في كتابه "La guerre des memoires, la France face a son passé coloniale 2014"، ويؤكد المؤرّخ أنّ مسألة الذاكرة بين البلدين، اتّخذت طابعا سياسيا في المجتمع الفرنسيّ، يتّسم برغبة كلّ طرف الاعتراف بذاكرته الخاصّة، ومن الطبيعيّ، في هذه الحالة، أن تكون ذاكرة الفرنسيّين قصيرة لتري ما حدث أثناء حرب التحرير فحسب، دون استطاعتها أن تفهم أنّ الثّورة حدثت بسبب مئة واثنين وثلاثين سنة من الاستغلال والقهر والحرمان، كان من الضروريّ معه القيام بثورة مسلّحة، بعد استفاد كلّ الطرق الأخرى، وأنّ العنف كان مقابلا لعنف الاستعمار، من أجل التّحرّز والاستقلال، ويرى "سطورا" كذلك أنّ التاريخ والعلاقات الماضية هي المحدّد لطريقة وجودنا في الحاضر، وأنّ التاريخ أصبح يقبع في كلّ الحياة النّخبوية في فرنسا وأصبح مجال الاهتمام الأوّل، ولم يكن كذلك قبل ثلاثين سنة الماضية، ويُرجع سبب هذا الاهتمام إلى الأزمة المتعدّدة والانهيار الذي يميّز المجتمع الفرنسيّ، وفقدانه الأمل في المستقبل، ويؤكد أنّ هذا المجتمع بكلّ أطيافه اليوم، يرى نفسه ضحيّة الدّولة، لأنّها لم تقم بما يجب تجاه ذاكرته الخاصّة، مرجعا سبب كلّ هذه الوضعية اليوم في فرنسا إلى العودة للاهتمام بالتّاريخ ويقصد الذاكرة الخاصّة بكلّ طائفة كانت لها علاقة بالاستعمار، وكذلك لعدم الوثوق في المستقبل وثالثا وهذا الأهم أنّهم أصبحوا، خلافا لسنوات الستينيات والسبعينيات والثمانينيات، أصبحوا ينظرون إلى

أنفسهم باعتبارهم ضحايا، الأمر الذي أدّى إلى أزمات إيديولوجية ما تزال تتخبّط فرنسا فيها، ومعنى هذا أنّ عدم الاعتراف بالذاكرة والحسم في مسألتها يقود المجتمعات إلى التخبّط في الحاضر وعدم ضمان المستقبل، ولذلك فإنّ هذه المطالبات من قبل العسكريين السابقين والحركي والمعمّرين، كانت السبب في عدم اعتراف فرنسا اليوم بجرائمها في الجزائر، لأنّ هذا الاعتراف سيمسّ تلك الجماعات، لكنّ لا بدّ من الاعتراف كسبيل وحيد لبناء المستقبل، وعدم ذلك يقود، كما يذهب المؤرّخ، إلى خطر كبير وهو الوهم الوطني، والصراعات المختلفة⁷، يُساهم، بتعبير "ريكور" في هشاشة الهوية، لأنّ هشاشة الهوية تأتي من التلاعب بها، وعدم الاعتراف بحقيقتها، إذ يذهب إلى أنّ «البحث عن سبب هشاشة الذاكرة المتلاعب بها في إشكالية الهوية. هذه الهشاشة تضاف إلى الهشاشة المعرفية الناتجة عن القرب القائم بين الخيال وبين الذاكرة وتجد في هذه الأخيرة محفّزها ومساعدتها»⁸. فما قامت به فرنسا بد الاستقلال إلى الآن هو تلاعب بالذاكرة، ذاكرة الفرنسيين وذاكرة الجزائريين، وكلّ من كانت له علاقة بالاستعمار الفرنسي للجزائر وإفريقيا، وذلك يعني أنّ التلاعب بالذاكرة يجعل الحياة برمّتها هشّة، معرفيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا أي حين لا نسوّي الأسماء بمسمياتها ولا نعترف بالذاكرة التاريخية فإنّنا نسمح لسردية خيالية لتأخذ مكان الحقيقة، ومنه وبناء على ريكور فإنّ هشاشة الذاكرة تؤدّي إلى هشاشة الهوية ويرجع "ريكور" سبب هذه الهشاشة إلى مسألة الزمن، وإلى المواجهة مع الآخر، إذ، حسب، «السبب الأول لهشاشة الهوية هو علاقتها مع الزمن.... السبب الثاني للهشاشة هو المواجهة مع الغير، الذي نشعر به كتهديد، هناك واقع قائم هو أنّ الآخر لأنّه آخر ندركه كخطر على هويتنا الخاصة بنا، هوية النّحن وهوية الأنا...»⁹. وهذا ما يبدو جليا في تعامل فرنسا اليوم مع قضية الذاكرة مع الجزائر، وهذا أيضا جاء على لسان "سطورا"، الذي يرى أنّه و«على الرغم من محاولات فرنسا معالجة هذه الوضعية الصعبة، إلّا أنّ الحقيقة أنّ فرنسا قد تأخّرت في حسم مسألة الذاكرة، بسبب تردّدها في الاعتراف بالتاريخ الاستعماري ومحاولاتها التخلّص منه بسرعة بعد استقلال الشعوب التي استعمرتها»¹⁰. وهذا يعدّ دليلا على أنّ الذاكرة اليوم بين فرنسا والجزائر يجب أن تقوم على الاعتراف بالاستعمار باعتباره عملية تخريب للإنسان المستعمر، والإقرار بالجرائم التي ارتكبت في حقّ الجزائر والجزائريين، كسبيل أوحّد لبناء علاقات حضارية، وإنّ وعي المجتمعات الغربية بالتاريخ وضرورة الاعتراف بالذاكرة، يجب أن يمرّ عبر الشعور بالإثم والنّدم ورجاء التوبة والصفح، لما فعله النظام الاستعماري في حقّ

⁷ Marie poinso, La guerre des mémoires, entretien avec Benjamin Stora, Hommes et Migrations, n° 1268-1269 année 2007, p 209 article en ligne, https://www.persee.fr/doc/homig_1142-852x_2007_num_1268_1_4649

⁸ - بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص 137

⁹ - بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص 137-138

¹⁰ -Marie poinso, La guerre des mémoires, entretien avec Benjamin Stora, Hommes et Migrations, n° 1268-1269 année 2007, p 208- article en ligne, https://www.persee.fr/doc/homig_1142-852x_2007_num_1268_1_4649

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

الشعوب المستعمّرة، وإنّ ضغط الواقع وضبابية المستقبل، والشعور بتلاعبات السلطة السياسية، لتغذية تشوّهات الذاكرة، يفرض على هذه السلطة أن تُزيل كلّ المعوّقات التي تحول دون بناء علاقات ثقافية وسياسية واقتصادية عادلة ونافعة.

ثانيا، رواية الرجل الأوّل، صناعة الذاكرة، البنية التّاريخية والعدالة الموهومة

لم تستطع فرنسا والإمبراطوريات الاستعمارية الأخرى نفي تاريخها الكولونيالي، ولا الاعتراف بما ارتكبته في حقّ شعوب كثيرة، في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، من جرائم لم تتقادم تاريخيا، بل تظلّ شاهدة على بربرية، منقطعة النّظير، وهمجية لم تعرف حدّا، وعلى الرغم دخول أوروبا عصر الحداثة، منذ القرن السابع عشر، تمّ من خلالها الادّعاء بالخروج من عوالم القرون المظلمة، إلّا أنّ ما ميّز تاريخها "الحداثي-العقلاني" هو الحروب والإشكالات الحضارية والأزمات الاقتصادية، بالإضافة إلى مختلف أشكال التّهب والسيطرة وأنواع الحروب الدّينية، الظاهرة منها والخفية، وأصناف التّجاذبات الفكرية ومحاولات السيطرة والتّشويه، وكان الاستعمار الأوروبي أحد أهمّ هذه المظاهر، وعلى الرغم من كونه ظاهرة بارزة مسّت جزءا كبيرا من جنوب الكرة الأرضية، إلّا أنّ ذاكرة أوروبا الاستعمارية ما يزال يطبعها النّسيان المفضي إلى التبدّد، لا إلى الاعتراف، وتظلّ ذاكرتها حول أحداث الاستعمار تختزل علاقتها بالآخر، وما تزال تُغذي الوقائع الاجتماعية والسياسية والمخيال الأوروبي، فقد كان الاستعمار حدثا خطيرا، نتج عن تضخّم الذات الأوروبية وحاجتها إلى فضاءات جغرافية جديدة للتّوسّع، لهذا يرى المارتينيكي "إيمي سيزير"، الذي يُعدّ أحد أكبر نقّاد الكولونيالية، أنّ الحضارة الأوروبية كانت السبب في بروز مشاكل كثيرة، من بينها مشكلة الاستعمار، ويوضّح « أنّ ما يُطلق عليه بالحضارة الأوروبية، الحضارة الغربية، التي تشكّلت على مدى قرنين من النّظام البرجوازي، عاجزة عن حلّ مشكلتين رئيسيتين، كانت هي السبب في وجودهما: مشكلة البروليتاريا ومشكلة الاستعمار. وأوروبا، إذ تُحاكّم أمام قاضي العقل والضمير، عاجزة عن تبرير نفسها، وتلجأ أكثر فأكثر إلى نفاق يزداد بغيضا كلّما تضاءلت فرصها في الخداع»¹¹. فالحقيقة الكامنة وراء الاستعمار هي أساسه الاقتصادي الأوّل، فأوروبا كانت ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر في حاجة إلى فضاءات جديدة للتّوسّع الرأسمالي، ولم يكن الاستعمار سوى امتداد اقتصادي بالدرجة الأولى، مع حملات دينية وتاريخية، و"سيزير" يُحدّد أنّ الحضارة الأوروبية كانت السبب في ظهور مشكلتين: "البروليتاريا" و"الاستعمار"، وهنا لا بدّ من الوقوف عند مسألة تاريخية مهمّة، وهي أنّه لم يكن هناك من سبب سياسي أو عسكري أو أيّ نوع من الاعتداء أو الإساءة، ليكون الرّدّ بحروب استعمارية واسعة، تمّ خلالها ارتكاب جرائم فظيعة، في حقّ شعوب كثيرة، ومهما كان الأمر، فإنّ الاستعمار متعلّق بالبنية الفكرية لأوروبا ومنطلق منها، ونتيجة لها، وأساسه الفكري قابض

¹¹ - Aimé Césaire, Discours sur le colonialisme, suivi de Discours sur la Négritude, Editions Présence Africaine, Paris, 2005 p 7

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

في لبّ هذه الحضارة، حتّى ولو لم يكن هناك آخر مختلف عنها، وغدا الاستعمار يختزل ذاكرة الأروبيين في أنّه يُمثّل "تحضيراً لشعوب إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية"، وطغت هذه الفكرة على مستويات عديدة؛ في مجال الاقتصاد والتبادلات المختلفة، وفي العلاقات السياسية وفي مجال الإعلام وفي التفكير الفلسفي والكتابة الأدبية كذلك، وكوّنت تراثاً تاريخياً أصبح مرجعاً في استقاء المعنى، ومحدّداً للوعي التاريخي ولمختلف السياسات والتعاملات والقوانين الوطنية-الداخلية والدولية، وكذلك للكتابات الأدبية. وغدا يُمثّل، للأروبيين ككلّ، الذاكرة الفردية والجمعية، فكيف تحوّل التاريخ الحقيقي المضمر للاستعمار والعائد لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى إلى ذاكرة مغايرة تماماً بالنسبة لأروبي الجزائر من المعمّرين، واندمجت ذاكرتهم بذاكرة أروبا واختزلت في "إساءات" الجزائريين للمهمة التحضيرية؟ وما سبب كون الأوضاع الاقتصادية لطبقة العمال من المعمّرين في المستعمرات، كانت أقلّ من نظيرتها في أروبا؟ ولماذا يتماهي المعمّرون مع الخطاب الكولونيالي، على الرغم من كونهم إحدى ضحاياه؟

كان الاستعمار قائماً على تفوّق العنصر الأروبي، وكذلك على نفي تاريخ الشعوب المستعمرة، التي يستعبدتها ويجعلها في خدمته وخدمة المؤسسات التي أنشأها، فضلاً عن أنّه كان المسؤول عن ترابعية جنسية، غالباً ما كان الأروبي فيها هو "السيد"، وغالباً ما كانت الطبقات الاجتماعية في الجزائر أثناء فترة الاستعمار الفرنسي، تنقسم إلى ثلاث مستويات؛ الأولى، الفرنسيون من أصول أروبية، والثانية، الفرنسيون من أصول شمال إفريقية (المعمّرون من أصول أروبية)، والطبقة الثالثة هي طبقة الجزائريين أو "الأنديجين أي الأهالي"، كما يُطلق عليها الفكر الميتروبوليتاني والكولونيالي، وعلى الرغم من عدم وجود شيء اسمه النقاء البيولوجي، أو شيء يُسمّى أروبي من أرومة أروبية خالصة، إلّا أنّ هذا التقسيم ظلّ يُعتمد في كلّ مقارنة للمجتمعات الكولونيالية. والأمر الآخر هو أنّه كانت بين هذه الطبقات الثلاث فروقا كثيرة وكبيرة، وأثّرت في نشأة وعي خاصّ لدى كلّ طبقة، مؤثّرة في نشأة منظورات الفكر والأدب والفلسفة، ولكن، وعلى الرغم من الفروق الواضحة بين الفرنسيين والأروبيين معاً، سواء في الجزائر أو بينهم وبين الذين يعيشون في فرنسا، إلّا أنّ الطبقة المسحوقة، التي كانت تُكابّد الحياة لم تكن سوى الجزائريين، وقد جاء هذا المعنى على لسان بطل رواية "الإنسان الأوّل" بقوله «ففي هذا البلد [يقصد الجزائر]، بلد الهجرة والثراء السريع والإفلاس المذهل، كانت الحدود بين الطبقات أقلّ وضوحاً من الحدود بين النّاس. لو كان الطفلان [يقصد جاك وصديقه بييروهما طفلان يدرسان معاً] عرباً لكان شعورهما أكثر ألماً ومرارة»¹². فقد كانت الجزائر بالنسبة للأروبيين والفرنسيين منهم خاصة بلداً للحصول على المال وتحقيق الثراء، الذي لم يكن لهم حظّ الحصول عليه في أروبا، لذلك لم يكن أمامهم سوى استباحة البلاد ونهب ثرواتها، فأولئك القادمون كان همّهم الأوّل والوحيد هو الحصول على

¹² - ألبير كامو، الإنسان الأوّل، ترجمة لبنى الريدي، دار الهلال، ص 178

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

النّراء، ولم يهتمّهم أبداً أن يبقى أهل البلاد الحقيقيّين في وطنهم، ولم يعبؤوا بمصيرهم، إذ أخرجوا من التّاريخ، وظلّوا يقبعون على هامش الحضارة، على الرغم من الادّعاءات التّحضيرية للمستعمرين.

إنّ علاقة المستعمر بتاريخ الشعوب المستعمرة يكاد يطغى على الخطاب الكولونيالي أثناء الاستعمار، فهو قائم على نسف تاريخ الشعوب المستعمرة، وهذه المسألة ظاهرة في بداية الرواية، إذ نجده يقول بأنّ «هذا البلد الذي لا اسم له...»¹³. فإذا كان "كامو" على لسان "جاك كوغيوغي" راجعا إلى مسقط رأسه بالجزائر، فهو لا يرى لهذا البلد الذي يقصده أيّ تاريخ، يُسمّى إفريقيا، ولا يوضح بشكل كاف أنّ البلد الذي ولد به هو الجزائر مع إشارته العاصمة الجزائر فحسب، وهذا يدلّ على نسقية تُكوّن نصوص "كامو" كلّها، وسنأتي على إظهار مسألة الوطنية، لأنّه لا يشعر فعلا بارتباط هذا البلد بالجزائريّين، وما يجب الإخلاص له أي الوطن، والأمر نفسه نجده حين يتحدّث عن موت والده دفاعا عن بلد بعيد وغريب في الحرب العالمية الأولى، وقد كان النّفي متعلّقا بـ"كامو"، الذي ظلّ ينفي الجزائر، التي وُلد بها ورأى أصحابها الحقيقيّين وتكلّم عنهم، لكنّه لم يهتمّ الاستعمار ولم ير أنّه المسؤول عن وضع ملايين الجزائريّين، الذين أبعدوا عن كلّ شيء.

لم يكن هذا الأمر، بالنّسبة لـ"كامو" مجرد إبداع أدبي، ينتمي للكتابة الخيالية، بل كان منخرطا، بعمق، في نظرة أحادية، متحيّزة، لا تنظر إلى الشعوب المقهورة، ولا تتكلّم عنهم وعن أحوالهم، ولا تفضح سياسات الاستعمار ولا تكشف بنيته الفكرية. فقد جاء على لسانه حين نال جائزة نوبل، فيما ورد في "خطاب السويد" في العاشر من شهر ديسمبر من سنة 1957، « إنّ كلّ جيل يرى أنّ مهمّته، بدون شكّ، هي أن يُعيد بناء العالم، وجيلي يعلم رغم هذا أنّه لن يُعيد هذا البناء، إلّا أنّ مهمّته ربّما أكبر. إنّها تقوم على منع انمحاء العالم... يعرف هذا الجيل أنّ عليه... أن يُقيم بين الأمم سلاما من دون استعباد، وأن يُصالح من جديد بين الثّقافة والعمل، ويُعيد إبرام التّحالف بين جميع بني البشر»¹⁴. فهو الذي تكلّم عن فظائع قنبلة هيروشيما النووية وعن محتشدات الروس في حقّ المعارضين للبلشفية، أراد أن يُوهمنا بأنّه يدافع عن المظلومين، ويتميّ تحقّق عالم تسوده العدالة، لكنّه نسي أن ينظر إلى مأساة شعب مستعمر، كان أقرب إليه من اليابان ومن روسيا، ولم يُدّن، لا خفية ولا صراحة، الاستعمار، لأنّ ممثليه كانوا من بني جلدته، هذا الأمر يجعلنا نخلص إلى أنّ اعترافات كامو التي تبدو في صالح المستعمرين كانت موهومة، لأنّه لم يُشر إلى السبب الحقيقي لوضعية الجزائريّين، المتمثّل في الاستعمار.

¹³ - ألبير كامو، الإنسان الأوّل، ترجمة لبنى الريدي، دار الهلال، ص 17

¹⁴ - ألبير كامو، خطاب السويد، أو الفنّان وزمانه، ترجمة أحمد المديني، أزمنة للنشر والتّوزيع، الدّوحة، الطبعة الأولى، 2010، ص 24.

إنّ الحقيقة التي لا مراء فيها تكمن في أنّ "كامو" أراد أن يكون "نبيّا" يقود جيله، ضدّ ما سمّاه بالاستعباد، وأن يسعى للتّحالف بين جميع البشر، لكنّه نسي أن ينظر تحت رجليه وأمام باب منزله، هناك كان يكمن أفضع استعباد للبشر وقهر للرجال وقتل للأرواح، مارسه نظام يُمثّل بلد أجداده، وكان الأولى به أن ينضوي تحت من كانوا يسعون، فعلا، لتحرير الإنسان والبشرية جمعاء من سيطرة الظلم والطغيان، الذي كان يُمثّله الاستعمار، ومن عجيب الصدف أن يُترجم "خطاب السويد" Discours de Suède كاتب مغربيّ، مضيفا له "الفنّان وزمّانه"، مع أنّه خطابٌ سياسي أكثر من كونه خطابا آخر، وإنّ من شأن المقدّمات التي تُوضع للكتب المترجمة أن يكون له دورٌ مهمٌّ في أن تضعك في السياق الفكري والتّاريخي والسياسي للنّص المترجم، لكنّنا نجد أنّ مقدّمة "أحمد المديني" التي كانت في أحد عشر صفحة كاملة، وسمّها بـ "أبيركامي"، الإبداع بين الحرية والأخلاق"، تُحاول توجيه القارئ وإيهامه بأنّ ديدن "كامو" كان الحرية والالتزام بالأخلاق، وبأنّه أسيئ فهمه كثيرا، وقد جاءت فيها جملة من المغالطات التّاريخية الكبرى، التي لا يُمكن غفرانها، إذ وصف "كامو" بأنّه روائيٌّ كبير، وهذا أمر لا جدال فيه، لكن أيضا مفكّر رصين، ولا نعلم أين وجه الرصانة في فكر إقصائيّ موهوم، مشبع بفكر عنصري تحيّزي في حقّ شعب مستعمر، كان قريبا منه ومطلّعا على معاناته، والأكثر من كلّ هذا أنّ هذا المترجم يرى أنّ "كامو" المولود بالجزائر قد تشرب من المحيط المزيج من هويتين وثقافتين فرنسية وعربية، سائدة ومسودة، لكن السؤال المطروح هو أين الثّقافة العربية، في فكر وكتابات كامو؟ لا نرى ذلك بتاتا، بل إنّ الثّقافة العربية في الجزائر كانت تظهر باعتبارها ثقافة أقلّ مستوى من الثّقافة الفرنسية، فلم ترد ولا كلمة جزائرية واحدة في نصوصه كلّها، كما لم ترد إشارة إلى الثّقافة العربية الإسلامية وعظمتها عبر التّاريخ، لذلك فلم تكون الثّقافة العربية جزءا من هويّة "كامو" على الإطلاق .

أمّا عن مسألة الاستعمار فإنّ المترجم يتهم الذين رأوا إلى ما اعتبروه موقفا ملتبسا من الاستعمار الفرنسي للجزائر، ويرى بأنّه تعرّض موقف "كامو" تجاه حركة التّحرير الجزائرية لاحقا لسوء فهم في المتروبول الفرنسي، والأكثر من هذا أنّ المترجم يرى بأنّ "كامو" أصبح شخصية عمومية، حين انتقل إلى فرنسا، لكنّ السؤال لماذا لم يُصبح "كامو" شخصية عمومية وهو في الجزائر؟ مع أنّ كلّ مؤهلاته الفكرية والأدبية كانت تُرشّحه لذلك، لا شكّ أنّه كان يطمح لذلك، لكنّه لم يُسمّ الأسماء بمسمّياتها، لم ينخرط مع من كانوا أصحاب الحقّ والقضية في النّضال ضدّ الطغيان، وأصبح شخصية عمومية في فرنسا نتيجة تماهيه مع خطاب المركز وسكوته الفاضح عن القضية الجزائرية، لأنّه كان يؤمن بالجزائر الفرنسيّة، في حين نجد أنّ الشخصية العمومية الحقّة، التي عرفت مكانتها في فرنسا وأروبا وتصرّفت بناء على ذلك، هو "جان بول سارتر" صاحب "عارنا في الجزائر" ومقالات أخرى كثيرة حول الثّورة الجزائرية، بالإضافة إلى مجموعة مهمّة من المثقّفين ورجال القانون والأدب، الذي فضحوا الاستعمار وكتبوا عن أفعاله، من أمثال "بول فيني دوكتون" و"فرانسيس جونسون" و"جاك فرجيس" وكذلك

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

"أندري موندوز" في وكذلك "رايموند آرون"، و"فرانتز فانون" فأين تُصنّف كتابات هؤلاء، إذا كان كامو مناهضا للاستعمار؟ إن الحقيقة، التي لا مرأى فيها، هي أنّ موقف "كامو" لم يكن يرقى حتّى إلى الموقف الذي اُشتهر به الكاتب، المولود بالجزائر هو أيضا "جان بليغري" Jean Pélégri (1920-2003) صاحب "أمّي، الجزائر" Ma mère l'Algerie الصادر في سنة 1989، كان يؤمن فيها بجزائر التعدّد، لكنّ كتاباته وتصريحاته كانت، في الوقت ذاته، تعكس ارتباطه العميق بالجزائر وبتاريخها، مبتعدا عن وضع الكولونيالي وأصول أجداده الفرنسية، ومن جهة أخرى فإنّ "كامو" قاد معركة شرسة، كما يذهب المترجم، ضدّ النازية على صفحات مجلة Combat لكنّ الأمر المملّفت في هذه المسألة، هو أنّه إذا كانت الجزائر هي الوطن، فإنّ المعركة الحقيقة التي كان يجب عليه أن يقودها هي في الجزائر، فلماذا نُحاول، دوما، تبرير موقف هذا الكاتب مع أنّه لم يكن له موقفٌ صريح ممّا يحدث في الجزائر، موقفه كان مع فرنسا في حربها ضدّ النّازية، كنتيجة لشعوره بالانتماء، وهو ما يُضمر موقفه من الثّورة، التي هي حقٌّ مشروعٌ للجزائريين، لكنّه لم يقف معها، ولم تكن ضمن حقل اهتمامه، ولم ينتقد الاستعمار لا سرا ولا علانية، وعلى الرغم من كلّ هذا، نجد الفيلسوف الفرنسي المعاصر "ميشال أونفري" يرى أنّ كمية المغالطات والأحكام غير الدّقيقة جعلت من "كامو" أسطورة، إذ كتب تحت عنوان "التّاريخ ضدّ الخرافة" وبعد أن ذكر كلّ ما يُعرف عن "كامو" قام بتحديد حقيقة هذا الفيلسوف، ورأى أنّ « القراءة الأساسية لأعمال كامو يهدم كلّ هذا الخيال المستقيح...كامو كان فيلسوفا جديرا بهذا الاسم..كامو كان روائيا استطاع أن يُقيم، في كتاباته، توازنا بين الخيال والأفكار...كامو كان مفكرا مناهضا للاستعمار منذ حداثته سنّه إلى آخر حياته»¹⁵. ونلمح الكمّ الكثيف من المغالطات التي جاء بها "أونفري" في تبييض تاريخ كاتب لم يعرف يوما كيف يفضّح وحشية الاستعمار، على الرغم من ادّعاءاته هذا الأخير بأنّه كان مناهضا للاستعمار، لكننا لا نجد هذا في أيّ من كتابات "كامو"، لذلك كلّه فإنّ الكتابة التّقديّة عن "كامو" اليوم هي فضحٌ للتلاعب بالذاكرة، أمام سيلٍ من الكتابات التي جعلت منه نبيّ زمنه .

المعروف أنّ "كامو" (1913-1960) الإنسان قبل أن يكون فيلسوفا وأديبا، هو فرنسيّ، حتّى النّخاع، على الرغم من أنّ مسقط رأسه كان في الجزائر، وهو أمر أشار إليه عددٌ من المهتمّين بأدبه وفكره، وتُحدّد "جرمين بري" Germaine Brée (1907-2001) هذه الحقيقة بقولها «كامو كان يرى نفسه كأوروبي...وكان شديد التعلّق بفرنسا، بلده، كما تشهد على ذلك أفعاله وكتاباته السياسية»¹⁶. وهذا يُفسّر عن مآسي الأوروبيين دون غيرهم من الشعوب، وعلى الرغم من ارتباطه بالجزائر، إلّا أنّه لا

¹⁵ -Michel Onfray, L'Ordre libertaire, La vie philosophique d'Albert Camus, Flammarion, 2007, p 29-30-31

¹⁶ -جرمين بري، ألبير كامو، مطبعة المتوسّط، لبنان، ص 16-17

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

يُمكن لكاتب مثله أن يخرج عن كونه ينتمي لطبقة المعمّرين، ولا شعورياً يُحسّ، بعمق انتمائه للوطن "فرنسا"، وتُعبّر كتاباته عن كلّ ذلك، على الرغم من الفروق الكبيرة بين الانتماءين، إلّا أنّه استطاع أن يُحدث تماهيا لم يُحقّقه مع الجزائريين أبناء البلد، ولا مع الجزائري "الجزائريّة" الأصيلة، وقد عبّر المقارن الفلسطيني-أمريكي إدوارد سعيد، عن ذلك من خلال ما كتبه بعنوان "ألبير كامو، أو اللاشعور الكولونيالي"، يذهب فيه إلى أنّ « كامو حيثما يسرد قصةً في رواياته أو في مقطوعاته الوصفية، فإنّ الحضور الفرنسي في الجزائر يُصاغ إمّا كسرديّة خارجية، جوهر لا يخضع للزّمان أو التّأويل...أو بوصفه التّاريخ الوحيد الجدير بأن يُسرد كتاريخ»¹⁷. فارتباط "كامو" بفرنسا الاستعمارية أمرٌ جليّ، والتّاريخ الذي يسند سرديّته الخيالية هو تاريخ فرنسا، وإنّ ما سيرد في أدبه من رؤى قد تبدو مخالفة لهذا الأمر، ما هو إلّا إسباغ جمالي على نصوصه الأدبية، فما هو مضمّر في كتاباته هو عمق الانتماء إلى فرنسا برغم كلّ شيء، لذلك لم يستطع الشعور بما يدور حوله في الجزائر المستعمرة، ما يُعدّ تبريراً للحضور الفرنسي الكولونيالي، مع نفي الجزائريين، فالذاكرة التي تقبع في لاشعور "كامو" هي تلك المتعلّقة بمسيرة فرنسا "التّحضيرية"، التي هي منطق العقل الاستعماري، ويزداد هذا الأمر وضوحاً إذا نظرنا إلى روايته Le premier homme "الإنسان الأوّل" التي تُعدّ رواية سيرة ذاتية، تتّبع فيها "كامو" حياته الشخصية، وحياته عائلته وأصدقائه، منذ وطلّت الجزائر أقدامُ أولى المعمّرين الأوروبيين .

بدأ كامو كتابة "الإنسان الأوّل"، الرواية غير المكتملة، سنة 1953 وُجد مخطوطها في كيس في السيارة التي كانت سببا في الحادث القاتل، الذي وقع في باريس عام 1960، والسؤال الذي يُطرح في هذا الشأن هو؛ لماذا لم تُنشر هذه الرواية في الستينيات أو السبعينيات وفي الثّمانينيات، واضطرّ القارئ انتظار منتصف الثّسينيات، بالضبط عام 1994 لكي نراها منشورة في دار نشر فرنسية، أي بعد أربعة وثلاثين سنة كاملة من العثور على المخطوط، واثنين وثلاثين سنة من استقلال الجزائر، ترى النّاقدة الفرنسية "أنياس سبيكال Agnès Spiquel التي رَأست مؤسّسة الدّراسات الكاموزية من 2005 إلى 2022، أنّ "الإنسان الأوّل" رواية سياسية بالدرجة الأولى، وتُرجع سبب عدم نشرها إلى أمرين أساسيين، يتعلّق الأوّل إلى برفض أصدقاء "كامو" عدم نشرها، لأنّها كانت عملاً غير كامل، وأنّ "كامو" كان ليرفض نشرها بهذا الشكل، أمّا السبب الثّاني فترجعه لأسباب سياسية، لأنّ للرواية علاقة بالجزائريين وبثورة التّحرير الجزائرية، وقد فضّلوا عدم نشرها في تلك الظروف بالذات، أي في فترة حسّاسة في العلاقات الجزائرية- الاستعمارية، التي انتهت بنيل الجزائر استقلالها بعد أكثر من عام من حادثة مقتل "كامو"¹⁸، ومهما كان الأمر فإنّ عدم نشر هذا العمل راجع حسبنا إلى نوع من التّلاعب بالذاكرة، من قبل سلطة،

¹⁷ - إدوارد سعيد، الثّقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبودييب، ترجمة كمال أبودييب، دار الآداب بيروت، الطبعة الثالثة، 2004، ص 239

¹⁸ - يُنظر: Agnès Spiquel, Ils ne lisent pas Camus, ils s'en servent

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

كانت ترى أنّ النصّ يُمكن أن يكون له تأثير كبير على العلاقات بين الجزائر وفرنسا وعلى الاتّفاقات والمعاهدات التي كان الطرفان بصدد الانتهاء منها، والرواية تكتنز رؤية حول الأحداث التي عرفت الجزائر منذ بدايات الاستعمار، وإنّته لا سياسة بدون تاريخ ولا تاريخ دون ذاكرة، وأحداث الرواية، المرتبطة بحياة مؤلّفها وطبقة المعمّرين الذين كان ينتمي إليهم، تدور حول الذاكرة الكولونيالية، يعود من خلالها إلى ذاكرته، الفردية والجماعية، وقد عبّرت كتابات "ألبير كامو"، عن ذاكرة أروبيّ الجزائر، باعتباره معمرًا أروبيًا، ولد بالجزائر وعاش بينها وبين فرنسا، انطلاقًا ممّا علق بذهنهم من كون الجزائر الموطن "الأصلي" لهم، الذي لم يكن لهم موطنٌ غيره.

أمّا بنية رواية "الرجل الأوّل" فإنّها لم تخرج عن نسقيّة "كامو" في الكتابة الروائية، فالجزائري فيها، لا يزال دون اسم ودون هوية واضحة، وهو الذي عادةً ما ينعتة فقط بالعربي، في إصرار على وضعه ضمن الحشد، أي أنّه يُخضعه لعدم التّعيين، على الرغم من ذكره لبعض أسماء جزائريّين مثل "قادور" و"بدير"، لكنّه يُصرّ على ذكر أسماء المعمّرين الأروبيّين وتعيين هويّتهم وخصوصيّاتهم، مثل "هنري" و"مدام جاك" وغيرهما، في تقابل واضح بين المعمّرين والجزائريّين، ومنطلقًا، كما استقرّ دوماً في بنية الفكر الأروبي، من فكرة "السيد"، الذي يُمثّل كلّ أروبي، وفد للجزائر لاستبعاد أهلها، في مقابل "العبد" الذي يشمل المستعمّرين الخاضعين المنزوعي الحقوق، وهذا ما نلمسه طول الرواية، في بروز الدّات الأروبية المتعالية، التي "لا يرقى" إليها الجزائريّون. وهذه التّراتبية هي ما يطبع معاملات هؤلاء المعمّرين، سواء في إطار المجتمع أو من قبل المؤسّسات الاستعمارية، التي كانت تُشرعن ذلك كلّّه، وكانت هذه التّحيّزات قد أصبحت واقعا فعليا في الجزائر المستعمّرة. تبدأ الرواية بتصوير قدوم المعمّرين إلى الجزائر، وهو تصوير يُعبّر عن الغزو ويُشير إليه، في انتهاك لسيادة البلد ولأراضي أهلها، وهو ما كان عليه الاستعمار فعليا، فنراه يصف هذه العملية بقوله «جموعٌ كاملة عنا أكثر من قرن، حرثت وحفرت أثلاما متزايدة العمق في بعض الأماكن بينما كانت الأثلام مرتجفة في أماكن أخرى بحيث غطّتها طبقةٌ رقيقة من التّربة...أنجبوا ثمّ اختفوا. وكذلك فعل أبناؤهم ووجد هؤلاء الأبناء والأحفاد أنفسهم على هذه الأرض مثلما وجد هو نفسه، بدون ماض، بدون أخلاق، بدون دروس، بدون دين ولكّهم سعداء بوجودهم وبأنّ وجودهم في التّور، ولكّهم يشعرون بالقلق أمام اللّيل والموت. كلّ هذه الأجيال، كلّ هؤلاء الرجال الذين جاءوا من كلّ تلك البلدان المختلفة اختفوا دون أن يتركوا آثارا، منغلّقون على أنفسهم، تحت هذه السماء الرائعة وامتدّ عليهم نسيان ضخم تنشره وتوزّعه هذه الأرض»¹⁹. فقد كانت كلّ مشاريع الاستعمار منطلقة من شعورٍ أروبيّ بالتّفوّق، وقد كان الاستعمار في حدّ ذاته قائما على التّفوّق العرقي، وسمح

https://www.lemonde.fr/livres/article/2012/09/14/agnes-spiquel-ils-ne-lisent-pas-camus-ils-s-en-servent_1760453_3260.html

¹⁹- ألبير كامو، الإنسان الأوّل، ترجمة لبنى الريدي، دار الهلال، ص 170

للأوروبيين بالدّخول إلى هذه البلاد وامتلاك الأرض وإفراغها من أهلها، وهو ما حدث للجزائر وللمقارة الأمريكية وفلسطين، وكان الأمر في غاية البساطة بالنسبة لهؤلاء القادمين، ولم يشعروا يوما بالإحراج أو الندم، وكانت النتيجة تشريد ملايين البشر وانتزاعهم من أراضيهم وإزاحتهم وتعريضهم للضياع والقتل في أغلب الأحيان، لكنّ العقل الأوروبي يُصرّ على نسيان هذا الأمر الجلل، ولا يبني ذاكرته، انطلاقا من هذا الواقع الأليم، وهذا ما قدّمه المقارن الفلسطيني-أمريكي، في قراءته العميقة لكتابات "كامو" الأدبية، والتي خصّصها لتناول رواية "الغريب"، لكنّها تصلح أيضا لمقاربة "الإنسان الأوّل"، يذهب فيها إلى أنّه «إذا كانت أشهر روايات كامو تدمج وتلخّص من دون تسوية، وفي جوانب عديدة تفترض خطابا فرنسيا كثيفا حول الجزائر ينتمي إلى لغة المواقف والمرجعيات الجغرافية الإمبراطورية لفرنسا، فإنّ هذا يجعل آثاره أكثر أهمية وليس العكس؛ فَرَصَانَةُ أسلوبه والمعضلات الأخلاقية المقلقة التي يُفصح عنها والمصائر الشّخصية المؤلمة لشخصياته التي يُعالجها بكثير من الرقّة والسخرية المراقبة، كلّ هذا إنما يتغذّى من تاريخ السّيطرة الفرنسية في الجزائر ويُعيد إحياءها، بدقّة عالية مرهفة وغياب لافت للنظر للندم والرّافة»²⁰. فكتابات "كامو" الأدبية لم تكون لتظهر لولا اغترافها من معين الخطاب الكولونيالي، ومن انتمائه لطبقة المعمّرين، الذين كانت معاناتهم بسبب هشاشة هويّتهم وعدم ارتباطهم الوجودي بالأرض التي استولوا عليها، إذ إنّ أولئك القادمين الأوائل تركوا ذريّتهم في المناطق التي استولوا عليها، الذين وعلى الرغم من ادّعائهم السعادة بوجودهم فوق هذه الأرض، إلّا أنّهم كانوا يشعرون بالقلق وذلك لأنّهم لم يكونوا في أماكنهم الأصلية، فتلك الأرض كانت مغتصبة، ما ساعد في شعورهم بالاغتراب.

وبصفة عامّة، فإنّ موضوع الرواية كان مرتكزا على البحث عن الأب، الذي هو، من جهة أخرى، بحثٌ عن الانتماء، أي عن الوطن، وفي خضمّ كلّ هذا تميّز البطل "جاك كوغبوي" بالاضطراب والقلق، يصل حدّ الاهتزاز والحيرة، عبّرت عنها تساؤلاته العميقة، واسترجاع الذاكرة الشخصية حول الحرب العالمية الأولى، وتساؤله عن سبب ذهاب والده "هنري" للقتال في الحرب العالمية الأولى بفرنسا، من خلال زيارته لمقبرة "سانت بريوك"، بطلب من والدته، والده الذي مات، حسب جاك، في أرض مجهولة من الجانب الآخر للبحار، التي دفن فيها والده بعد مقتله في 11 أكتوبر 1914 بعد إصابته بجرح قاتل في معركة المارن، كان "هنري" قد قُتل ولم يكمل "جاك" عامه الأوّل، ومن هذه اللّحظة تبدأ رحلة البطل في البحث عن الأب أي عن الوطن وعن الهوية، «لم يكن سبل الحنو والشفقة الذي ملأ قلبه فجأة هو الشعور الذي يكنّه الابن لذكرى الأب الغائب، لكنّه الحنو المضطرب الذي يستشعره رجل أمام طفل قُتل ظلما»²¹. فالسؤال الوجودي الذي كان يقض مضجع "جاك" هو

²⁰ - إدوارد سعيد، ألبير كامو أو اللاشعور الاستعماري، ترجمة محمد هشام، في: الإسلام والغرب، ص 285

²¹ - ألبير كامو، الإنسان الأوّل، ترجمة لبنى الريدي، دار الهلال، ص 33

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

سبب موت والده في حرب لا علاقة له بها، فهو قد نشأ في بلاد مختلفة وتربّى فيها ولم يكن مستساغاً بالنسبة له أن يكون لشخص موطنين اثنين، ولعلّ هذا يُحيلنا إلى مسألة مهمّة، وهي أنّ "جاك" كان مقطّعا بين شيئين، هما مسقط رأسه "الجزائر" وانتماءه لطبقة المعّمين، ومن جهة أخرى "فرنسا"، التي لا يعرف عنها شيئا، فهل من الطبيعي أن يكون للإنسان موطنان؟ والغريب أنّ والده عاش الوضع نفسه، ما زاد في حيرته واضطرابه وأحاله لعدم الفهم، فالبحت عن الأب والبحث عن الانتماء مرتبطان ارتباطا شديدا في الرواية، يكاد يطغى على الرواية كلّها، لذلك يخاطبه أحدهم «(أبوك مات فداء للوطن)» في حين كان هذا المفهوم للوطن فارغا من المعنى بالنسبة لجاك، الذي كان يعرف أنّه فرنسي، وأنّ ذلك ينجم عنه عددٌ من الواجبات، ولكنّ بالنسبة له كانت فرنسا هي الغائبة التي ينتسب إليها والتي تحتاج إليه أحيانا... قال ذات يوم لأُمّه؛ ماما، ما هو الوطن؟ بدت مذعورة مثلما يحدث في كلّ مرة لا تفهم فيها السؤال وقالت؛ "لا أعرف. لا .. إنّهُ فرنسا. أه نعم" وبدت مرتاحة²². فالوطن، بالنسبة لـ"جاك" هو فرنسا، لأنّه، كان دوما كما كان يقول، فرنسيا، لكنّه كان ناقما على فرنسا، لأنّها لم تُكرم أبناءها، ولم تُكافئهم، فظلّت روحه تهفو لأن تنتمي لهذا البلد الأروبي، لذلك اقترن البحث عن الأب مع البحث عن الوطن، ولكلّهما كان إخلاص "كامو" و"جاك".

ومهما يكن فإنّ الذاكرة بالنسبة لبطل الرواية مختصرة في تاريخ الطبقة الاجتماعية التي كان ينتمي إليها، ولم يستطع مجاوزتها إلى غيرها، وإذا كان هؤلاء المعمّرون يحتفظون بذاكرتهم التاريخية في الجزائر فإنّه يحقّ لنا التّساؤل عن سبب عدم التفات "جاك" لمقابر الجزائريين، وعدم الاهتمام بذاكرة الأبناء الحقيقيين للبلاد وأصحاب الأرض، كان من الممكن له وهو يناقش مسألة الانتماء أن يذهب ليرى كم قُتل منهم من أطفال وشيوخ ونساء، فالملوّف في رواية "الإنسان الأوّل" اختزل الذاكرة في الذاكرة الفردية للبطل ولعائلته، والذاكرة الجماعية لأولئك الذين وصفهم في البداية بالقادمين من أروبا للحلول مكان السكّان الأصليين، دون اهتمام لمصائر هؤلاء المشرّدين والمنفيين من أرضهم، وبهذا لم يستطع "كامو"، وهو الروائي صاحب الصيت والمؤثر في أجيال كثيرة من أبناء الضفّتين أن يرقى إلى نظرة موضوعية وعادلة حول مسألة الذاكرة التاريخية بين فرنسا الاستعمارية والجزائر التي كانت إحدى ضحايا تلك العنجهية المتعالية.

ولذلك، وعكس ما تُوهمنا به سردية "كامو"، التي تبدو ذات نظرة موضوعية، من خلال حديثه عن ظروف قدوم المعمّرين للجزائر، وعن حياتهم في أرض مسلوبة، وعن تاريخهم الذي لم يجد "كامو" بداً من روايته فحسب، دون التفات لتاريخ من هم أحقّ بتلك الأرض، يذهب بالقول إلى أنّ أولئك المعمّرين « ماتوا ولا زالوا يموتون منصرفين عن كلّ شيء،

²² - ألبير كامو، الإنسان الأوّل، ترجمة لبنى الريدي، دار الهلال، ص 182-183

مثلما مات والده في مأساة غير مفهومة بعيدا عن موطنه، بعد حياة كلّها لا إرادية واضطرابية منذ ملجأ الأيتام إلى المستشفى، مروراً بالزواج المحتوم، حياة أقيمت حوله رغما عنه إلى أن قتلته الحرب ودفنته، مجهولا للأبد بالنسبة لذويه وابنه، الذي رُدّ هو أيضا إلى النسيان الشاسع الذي يُمثّل الوطن النهائي للرجال من شاكلته، وآل لحياة بدأت بدون جذور، وفي مكتبات تلك الفترة العديد من المذكرات عن استخدام الأطفال اللّقطاء لاستعمار هذا البلد، للأبد، في أنفسهم وفي الآخرين. إنّه تاريخ الرجال، هذا التّاريخ الذي لم يكفّ عن التّجول على أحد أقدام الأرض تاركا فيها أثارا قليلة للغاية قد تتبخّر تحت الشمس الملّحة ومعه ذكرى الذين صنعوه فعلا²³. فهو يختزل ذاكرته في والده فحسب، ويرى أنّه قُتل ظلما، لكن، ماذا عن الجزائريّين، أبناء البلد؟ ألا تسعّ ذاكرة "كامو"، وهو مؤلّف هذا النصّ لذاكرة هؤلاء المقهورين؟ إنّ "الإنسان الأوّل" رواية ذاكرة المعمّرين، لأنّ "كامو" يرى أنّهم هم من صنعوا تاريخ الجزائر و"كامو" أو "جاك" واحدٌ منهم، لم يستطع التّخلّص من الانتماء إليهم والتّحدّث باسمهم، لذلك نخلص إلى أنّ هذا النصّ، هو في حقيقته، سرديّة المعمّرين الاستعماريّين ولم يكن يوما يُمثّل سرديّة الجزائريّين، أمّا العدالة، التي تغفّي بها "كامو" في خطاب ستوكهولم" وفي مجمل مؤلّفاته، فلتذهب إلى الجحيم، هذا هو منطق هذا النصّ وبنيتة المضمرّة، التي تنطلق من الأنا الأوروبيّ، المستأثرة بمكان الآخر، النّافية لوجوده وحياته وذاكرته.

اختصرت "الإنسان الأوّل" التّاريخ في ذاكرة فرنسا الاستعمارية، وفي الوقت نفسه ذاكرة المعمّرين في الجزائر، وبقي "جاك" ومن ورائه "كامو" مرتبطا بجزائر المعمّرين، التي ترمز إليها والدته التي عاد لرؤيتها بالجزائر، وبقي والده الذي مات، بالنسبة إليه، في مأساة غير مفهومة، ذا رمزية كبرى يُحيل إلى فرنسا، أمّا الأستاذ "برنار" فكان يُمثّل له البديل النّفسي، الذي يُريد أن يكون عوضا عن فقد كليهما، فما كان ما يعيشه "كامو" هو قلقٌ وجوديٌّ، أمام حقائق التّاريخ، نتيجة هويته الهشّة، التي هي إحدى نتائج الذاكرة المصنوعة، المحيلة إلى السراب، لأنّه كان يعلم أنّ ثورة التّحرير الجزائرية ستنتهي بمحو وجود المعمّرين.

مصادر الدّراسة ومراجعها

- 1- بول ريكور، الذاكرة، التّاريخ، النسيان، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ترجمة جورج زيناتي، الطبعة الأولى، 2009

²³ - ألبير كامو، الإنسان الأوّل، ترجمة لبنى الريدي، دار الهلال، ص 170-171

صناعة الذاكرة، تمثّل أدب المعمّرين في الجزائر للبنى الكولونيالية

- 2- مجموعة من المؤلّفين، خارج الأسوار، أوراق في الدّراسات الثّقافية، تحرير مبارك الجابري، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، الطبعة الأولى، 2022
- 3- ألبير كامو، الإنسان الأوّل، ترجمة لبنى الريدي، دار الهلال
- 4- ألبير كامو، خطاب السويد، أو الفنّان وزمانه، ترجمة أحمد المديني، أزمنة للنّشر والتّوزيع، الدّوحة، الطبعة الأولى، 2010
- 5- جرمين بري، ألبير كامو، مطبعة المتوسّط، لبنان
- 6- إدوارد سعيد، الثّقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبودييب، ترجمة كمال أبودييب، دار الآداب بيروت، الطبعة الثالثة، 2004
- 7- إدوارد سعيد، الاستشراق؛ المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عنّاني، دار رؤية للنّشر والتّوزيع. القاهرة، الطبعة الأولى، 2006
- 8- ألبير كامو، الطاعون، ترجمة سهيل إدريس، دار الآداب. بيروت، الطبعة الثّاني، 1986
- 9- تزفيتان تودوروف، مسألة الآخر؛ فتح أمريكا، ترجمة بشير السباعي، سينا للنّشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1992
- 10- حميد دبّاشي، هل يستطيع غير الأوروبي التّفكير؟ ترجمة عماد الأحمد، دار المتوسّط. إيطاليا، الطبعة الأولى. 2016
- 11- حميد دبّاشي، مابعد الاستشراق؛ المعرفة والسّلطة في زمن الإرهاب، ترجمة باسل عبد الله وطفه، منشورات المتوسّط. إيطاليا، الطبعة الأولى، 2015
- 12- محمد عابد الجابري؛ الإسلام والغرب (الأنا والآخر) الشبكة العربية للأبحاث والنّشر بيروت الطبعة الأولى، 2009
- 13- غاستون باشلار، الفكر العلمي الجديد، ترجمة عادل العوا، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، لبنان، الطبعة الثانية، 1983
- 14- غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، مساهمة في التحليل النّفساني للمعرفة الموضوعية، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، لبنان، الطبعة الثانية، 1982
- 15- أحمد منغور، موقف الرأي العام الفرنسي من الثّورة الجزائرية 1954-1962، دار التّنوير، الجزائر، الطبعة الأولى، 2008

13- Albert Camus, l'étranger et autres nouvelles, Enag Edition , Alger ,1988

14- Marie Poinssot, La guerre des mémoires, entretien avec Benjamin Stora, Hommes et Migrations, n° 1268-1269 année 2007, p 209 article en ligne, https://www.persee.fr/doc/homig_1142-852x_2007_num_1268_1_4649

Aimé Césaire, Discours sur le colonialisme, suivi de Discours sur la Négritude, Editions Présence Africaine, Paris , 2005

Albert Camus, Misère de la Kabylie, édition Zirem, Algérie, 2005

Michel Onfray, L'Ordre libertaire, La vie philosophique d'Albert Camus, Flammarion, 2007

https://www.lemonde.fr/livres/article/2012/09/14/agnes-spiquel-ils-ne-lisent-pas-camus-ils-s-en-servent_1760453_3260.html